النصُّ...ذلكَ السّحرُ الآخرُ

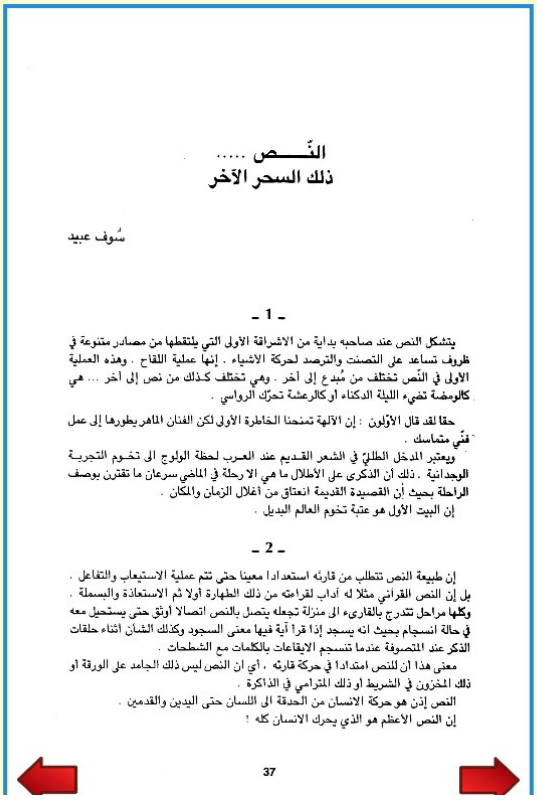

النّـــــص .....
ذلك السحر الآخر

سُوف عبيد

- 1 -

يتشكل النص عند صاحبه بداية من الاشراقة الاولى التي يلتقطها من مصادر متنوعة في ظروف تساعد على التصنت والترصد لحركة الاشياء . إنها عملية اللقاح . وهذه العملية الاولى في النّص تختلف من مُبدع إلى آخر . وهي تختلف كذلك من نص إلى آخر ... هي كالومضة تضيء الليلة الدكناء أو كالرعشة تحرّك الرواسي .

حقا لقد قال الأوّلون : إن الآلهة تمنحنا الخاطرة الأولى لكن الفنان الماهر يطورها إلى عمل فنّي متماسك .

ويعتبر المدخل الطللي في الشعر القديم عند العرب لحظة الولوج الى تخوم التجربة الوجدانية . ذلك أن الذكرى على الأطلال ما هي الا رحلة في الماضي سرعان ما تقترن بوصف الراحلة بحيث أن القصيدة القديمة انعتاق من اغلال الزمان والمكان .

إن البيت الأول هو عتبة تخوم العالم البديل .

- 2 -

إن طبيعة النص تتطلب من قارئه استعدادا معينا حتى تتم عملية الاستيعاب والتفاعل . بل إن النص القرائي مثلا له آداب لقراءته من ذلك الطهارة أولا ثم الاستعاذة والبسملة . وكلها مراحل تتدرج بالقارىء الى منزلة تجعله يتصل بالنص اتصالا أوثق حتى يستحيل معه في حالة انسجام بحيث انه يسجد إذا قرأ آية فيها معنى السجود وكذلك الشأن اثناء حلقات الذكر عند المتصوفة عندما تنسجم الايقاعات بالكلمات مع الشطحات .

معنى هذا ان للنص امتدادا في حركة قارئه ، أي ان النص ليس ذلك الجامد على الورقة أو ذلك المخزون في الشريط أو ذلك المترامي في الذاكرة .

النص إذن هو حركة الانسان من الحدقة الى اللسان حتى اليدين والقدمين .

إن النص الأعظم هو الذي يحرك الانسان كله !

37

تونس

المسار
العدد رقم 3_4
1 يونيو 1989

تصفح العدد

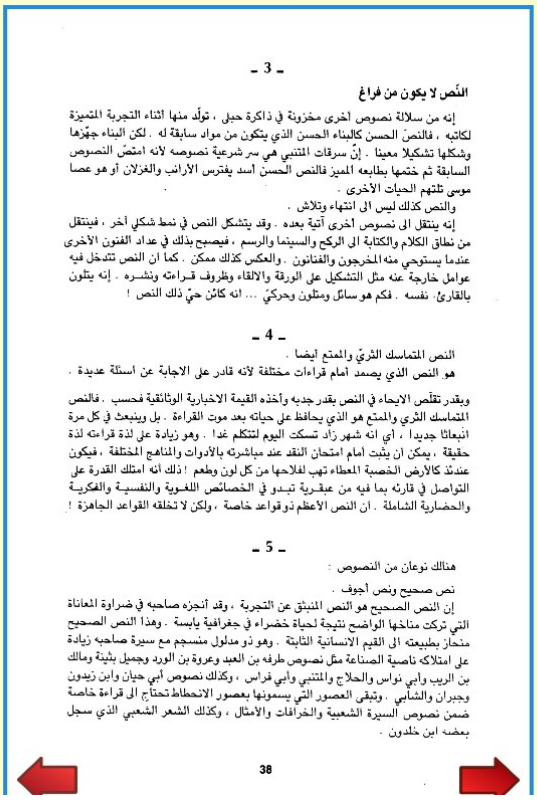

- 3 -

النّص لا يكون من فراغ

إنه من سلالة نصوص اخرى مخزونة في ذاكرة حبلى ، تولّد منها أثناء التجربة المتميزة لكاتبه ، فالنصّ الحسن كالبناء الحسن الذي يتكون من مواد سابقة له . لكن البناء جهّزها وشكلها تشكيلا معينا . إنّ سرقات المتنبي هي سر شرعية نصوصه لأنه امتصّ النصوص السابقة ثم ختمها بطابعه المميز فالنص الحسنّ أسد يفترس الارانب والغزلان أو هو عصا موسى تلتهم الحيات الأخرى .

والنص كذلك ليس الى انتهاء وتلاش .

إنه ينتقل الى نصوص اخرى آتية بعده . وقد يتشكل النص في نمط شكلي آخر ، فينتقل من نطاق الكلام والكتابة الى الركح والسينما والرسم ، فيصبح بذلك في عداد الفنون الأخرى عندما يستوحي منه المخرجون والفنانون . والعكس كذلك ممكن . كما ان النص تتدخل فيه عوامل خارجة عنه مثل التشكيل على الورقة والالقاء وظروف قراءته ونشره . إنه يتلون بالقارئ نفسه . فكم هو سائل ومتلون وحركي ... انه كائن حيّ ذلك النص !

- 4 -

النص المتماسك الثريّ والممتع أيضا .

هو النص الذي يصمد أمام قراءات مختلفة لأنه قادر على الاجابة عن أسئلة عديدة .

ويقدر تقلّص الايحاء في النص بقدر جدبه وأخذه القيمة الاخبارية الوثائقية فحسب . فالنص المتماسك الثري والممتع هو الذي يحافظ على حياته بعد موت القراءة . بل وينبعث في كل مرة انبعاثا جديدا ، أي انه شهر زاد تسكت اليوم لتتكلم غدا . وهو زيادة على لذة قراءته لذة حقيقة ، يمكن ان يثبت أمام امتحان النقد عند مباشرته بالأدوات والمناهج المختلفة ، فيكون عندئذ كالأرض الخصبة المعطاء تهب لفلاحها من كل لون وطعم ! ذلك أنه امتلك القدرة على التواصل في قارئه بما فيه من عبقرية تبدو في الخصائص اللغوية والنفسية والفكرية والحضارية الشاملة . ان النص الأعظم ذو قواعد خاصة ، ولكن لا تخلقه القواعد الجاهزة !

- 5 -

هنالك نوعان من النصوص :

نص صحيح ونص أجوف .

إن النص الصحيح هو النص المنبثق عن التجربة ، وقد أنجزه صاحبه في ضراوة المعاناة التي تركت مناخها الواضح نتيجة لحياة خضراء في جغرافية يابسة . وهذا النص الصحيح منحاز بطبيعته الى القيم الانسانية الثابتة . وهو ذو مدلول منسجم مع سيرة صاحبه زيادة على امتلاكه ناصية الصناعة مثل نصوص طرفه بن العبد وعروة بن الورد وجميل بثينة ومالك بن الريب وأبي نواس والحلاج والمتنبي وأبي فراس ، وكذلك نصوص أبي حيان وابن زيدون وجبران والشابي . وتبقى العصور التي يسمونها بعصور الانحطاط تحتاج الى قراءة خاصة ضمن نصوص السيرة الشعبية والخرافات والأمثال ، وكذلك الشعر الشعبي الذي سجل بعضه ابن خلدون .

38

تونس

المسار
العدد رقم 3_4
1 يونيو 1989

تصفح العدد

- 6 -

اما النص الاجوف فهو النص المنسوخ من املاء الذاكرة اساسا نتيجة معرفة المتون السابقة وحذق الأدوات الصناعية أساسا ، بحيث تنمحي فيه حرارة التجربة ، وبذلك يفتقد الى الشرعية ، وهو نص قد يقنعنا بالقدرة على اللغة ، لكنه لا يأخذنا الى اسرار التجربة فنكتوي بلظاها كما اكتوى صاحبه في النص الأصيل الصادق .

وهذا النص الاجوف يمسح مساحات شاسعة في تاريخ الأدب العربي خاصة النصوص المدحية والفخرية على النمط القديم ونصوص العبارات الجاهزة في الثورة والصوفية ضمن ديوان الشعر العربي المعاصر .

ويمكن أن نعتبر نصوص كليلة ودمنة ونصوص البخلاء في النثر كمثال على النص الأصيل . ويمكن ان نعتبرنصوص المقامات بداية للنصوص التي تنحومنحى الحشد اللغوي في تاريخ الأدب العربي والذي سيصل الى مستوى الألعاب البهلوانية بالكلمات . فهناك اذن نص مكتوب بالوجدان عبر الأعصاب ونص ملفوظ باللسان في برودة الأخشاب .

- 7 -

لا يمكن فصل النص - وهو الظاهرة اللغوية - عن سياق الظواهر الأخرى في التاريخ فعندما اكتمل القصيد الجاهلي في انجاز المعلقة انما عبّر عن اكتمال مؤسسة القبيلة التي هي نمط القصيدة نفسها متكونة من الأبيات التي تنتهي بالقافية التي تقوم مقام الفرد . فلا قصيدة بدون قواف ولا قبيلة من غير عصبية فالفرد والقبيلة يتفاعلان في المجتمع العربي كما تتفاعل القصيدة بقوافيها ، وعندما نزل القرآن جاء بنمط آخر للنص حيث كان القرآن عوضا عن الشعر والسورة عوضا عن القصيدة والآية عوضا عن البيت والوحي عوضا عن الالهام والاعجاز عوضا عن الفصاحة ، وبالتالي الأمة بدلا عن القبيلة والنبيّ بدلا عن الشاعر ... فانفجر النص العربي وتلاءم مع مرحلة المد العربي وأنتج نصوصا أخرى في شتى المواضيع الى ان انغلق على نفسه حتى صار لا ينفتح الا بالشروح ، وهي مرحلة التحجر الفكري من ناحية والانطواء على الذات نتيجة غزو اللغة الفارسية واللغة التركية مع تنامي اللهجات المحلية ، وذلك نتيجة لركود الاتصال بين الشرق والغرب بعد اكتشاف الطرق البحرية التي عزلت المنطقة العربية خارج الحركة العالمية ، فقد كانت تلك القوافل العربية جسورا للاتصال ومنابر للحوار .

- 8 -

بداية من القرن الماضي تحركت مفاصل النص العربي عندما ظهرت المطابع والجرائد والمعاهد التي ازعجت السبات العميق للنص القديم على ضجيج الآلات وأخبار حركات المجتمع وافكار المعاهد الجديدة ، فأخذ النص المعاصر ينمو شيئا فشيئا . وهو بقدر ما هو حفيد ذلك النص القديم والأصيل ، بقدر ما هو نتيجة كذلك لتلاقحه مع النص الغربي ، وخاصة النص الفرنسي والانقليزي ، مثلما كان النص العربي القديم ماضما لنصوصه المجاورة كالسرياني واليوناني والهندي ، ولكن مع فارق أساسي يتمثل في ان النص العربي كان وقتئذ يكتب في ثقافة كانت في المقدمة وخالية من عقد النقص . اما النص العربي المعاصر فانه يكتب الآن في ثقافة تابعة ومليئة بالفجوات .

- 9 -

إن النص العربي المعاصر لا يسمي بفصاحة الأشياء الموجودة في البيت العربي وهو عاجز عن تسمية المحيط الذي يعيش فيه وهذا العجز محبط لعملية كتابة النص ذاته بينما نلاحظ ان النص العربي القديم كان يسمي الخيمة بأدق تفاصيلها وكان يسمي محيطه في اصغر اجزائه من الجمل الى الصحراء ، فلقد كان العربي مسيطرا على المكان والزمان ، وهما العنصران المتلازمان لبناء حضارة الانسان . ولكن العربي في هذا العصر ليس مسيطرا على مكانه وزمانه ، حيث اتسع المكان الى الفضاء جميعا وحيث صار الزمان يقاس بأعشار الثواني . إن النص العربي الآن أمسى عاجزا عن تسمية المحدود في عالم بات فيه كل شيء لا محدودا !

- 10 -

لذلك فقد العروض توازنه في النص الشعري المعاصر ولذلك فقدت البلاغة مكانتها في النص النثري المعاصر . وتراجع دور الكاتب نفسه في المجتمع .

بلى . لقد أصبح الشعر غير الشعر القديم وصار النثر لا يشبه النثر القديم بل قد أفل نجم الأديب وبرز رجل التقنية !

هل العربي الآن هو العربي الجاهلي أو العباسي أو الفاطمي ؟ وهل علاقته بالمحيط هي نفسها ؟ ثمّة رواسب أصيلة لا جدال فيها . ولكن حدثت مواصفات جديدة فينا ..

ذلك هو النص الذي يتشكل الآن في رحم هذا الهزيع الأخير من الزمن العربي وضمن المشروع الحضاري الانساني المتأرجح .

إنه نص لا تكتبه يد واحدة !